

أحاديث رمضان ١٤٢٢ - موضوعات قرآنية - الدرس (١٥ - ٥٧) : الصبر .

فضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠١-١١-٢٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

لن تكون عبداً لله إلا إذا كانت مصلحتك وفق ما أراد:

أيها الأخوة، لو أن مريضاً يشكو ألماً في أسنانه، وجاء طبيب الأسنان ليقلع له بعض أسنانه، أخبره الطبيب أن قلبه لا يحتمل المخدر، فلا بد من نزع أسنانه من دون مخدر، مثل هذا المريض الأمر واضح جداً يتحمل الألم في سبيل أن ينجو من أزمة قلبية، أنا أقول لكم: أن هذا المريض لا يحتاج لأن نقول له: اصبر، لأن الأمر واضح جداً له، مصلحته وسلامته واستمرار حياته يقتضي أن يتحمل الألم، لكن متى نقول لإنسان اصبر؟ حينما لا يكون الأمر واضحاً .

سقت هذا المثل تمهيداً لمعنى قوله تعالى:

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ)

[سورة الطور الآية: ٤٨]

لو أن حكم الله واضح تماماً لا نحتاج أن نقول للناس اصبروا على حكم الله، لكن أحياناً الإنسان يمر بامتحانات كفرد أو كأمة، هذا الامتحان يأتي حكم الله على خلاف ما يتوقع الإنسان، فأنت إن كنت مؤمناً بنفسك لا تصبر إلا إذا كان الأمر واضحاً، أما إذا كنت مؤمناً بالله وبحكمته المطلقة وبرحمته وعدله المطلق فاصبر ولو لم يكن هناك وضوح في الأمر، أسوق هذا الكلام من أجل أن يبقى الإنسان متوازناً ولو جاءت الأمور على خلاف ما يتمنى، أوضح مثل في هذا الموضوع: أن إبراهيم عليه السلام وهو أبو الأنبياء خير بأمر لا يمكن أن يكون واضحاً ولا مقبولاً ولا مستساغاً ولا معقولاً، أوامر أن يذبح ابنه، وابنه شاب نبي:

(فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ)

[سورة الصافات الآية: ١٠٢]

أعطانا الله نموذجاً للعبادة الراقية، أنت مؤمن بالله مؤمن بحكمته مؤمن برحمته مؤمن بعدله، لذلك تصبر على قضائه وقدره، وإن لم يكن واضحاً لديك، لذلك قالوا: علة أي أمر أنه أمر .

أسوق لكم حواراً جرى بين عالم من دمشق وإنسان في أمريكا أسلم حديثاً، فكان هذا العالم -جزاه الله خيراً- شمر ليقنع هذا المسلم حديثاً بحرمة لحم الخنزير، فذكر له من الأدلة العلمية الصحية كيف أن هذا اللحم يسبب الأمراض التالية فيه دودة شريطية وفيه وفيه، فكانت إجابة هذا المسلم حديثاً قال: كان يكفيك أن تقول لي أن الله حرمه .

ما معنى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

[سورة التحريم الآية: 6]

عقد بينك وبين الله إيماني يا من آمنتم بحكمتي وبرحمتي وبعدي اصبروا افعلوا كذا وكذا، فالإنسان إذا كان مؤمن بذاته أو إذا كان يعبد ذاته -والله الذي لا إله إلا هو- لست مبالغاً في هذا الكلام هناك مسلم يعبد ذاته كيف؟ كل أمر بالدين واضح منطقي متمسك به لأنه لمصلحته ، إذا أمر غير منطقي غير واضح يعاكس مصالحه لا يقبله، يقول لك: غير معقول ! نقول له: أنت أيها الإنسان تعبد ذاتك، إذا جاءت الأوامر والنواهي وفق ما تريد قبلتها، فإن جاءت على خلاف ما تريد رفضتها، أنت لا تعبد الله أنت تعبد ذاتك، ولحكمة بالغة بالغة تأتي أحياناً بعض الأوامر على خلاف ما يتمنى الإنسان، على خلاف مصلحته ماذا نفع؟ هذا الأمر هو امتحان لعبوديتنا لله، دقق: أب بمستوى رفيع جداً أمر ابنه ألا ينام قبل أن ينظف أسنانه فكر إنه منطوق ، الأسنان ثمينة جداً.

سألت أخ طبيب كم يكلف زرع طقم أسنان كاملة؟ قال: مليونين ليرة! أنت بفمك أسنان يكلفوا زرع مليونين ليرة! فحينما يتلقى هذا الابن أمر من والده ألا ينام حتى ينظف أسنانه الأمر منطقي، إذا أمره أن يكون صادقاً واضح يحاسب على مكانته في المجتمع ، الصادق محترم جداً، والكاذب انتهى، شيء وسقط يقول: فلان كاذب، مهما كانت مكانته كبيرة عندما يكذب ينتهي، فكلما تلقى الابن أمر من والده وجده منطقي فقبله .

لكن مرة الطعام على المائدة والطعام طعام الأب، والأب ماله حلال والطعام طيب والابن جائع لا تأكل قال: سمعاً وطاعة يا أبت، هذا الأمر غير واضح وغير مقبول وغير مستساغ وغير منطقي وغير معقول، لكن لثقة الابن بحكمة الأب استجاب، هذا الابن بار، لو نفذ مليون أمر للأب لمصلحته هو يعبد نفسه ويطيعها، فكلما كان الأمر بالدين واضح جداً، وأنت يا أخي ما هذا الإسلام إسلام عظيم لأنه واضح، أما إذا جاءت الأخبار على خلاف ما تريد أو خلاف ما تتمنى يجب أن تكون أشد تعلقاً بحكم الله وبقراره وبقضائه وقدره إذا كنت مؤمناً بالله، فإله عز وجل يختبرنا، لذلك الأوامر الواضحة جداً نصيب العبودية فيها ضئيل جداً، والأوامر غير الواضحة نصيب العبودية فيها عال جداً، أنت أحياناً تجد إنسان في أعلى درجة من الاستقامة والخوف من الله والخشوع . فقير عنده مشكلة صحية كبيرة جداً، وتجد إنسان يرتكب المعاصي جهاراً ولا يعبأ وله جسم، أنا لي مصطلح سامحوني به، إذا كافر أقول له: مثل البغل، وإذا كان مؤمن مثل الحصان، تجد شخص قوي صحته من أعلى مستوى غني متعطر متكبر، هذان حالتان يسببوا اختلال توازن أحياناً هذه الحالة لمن تقع؟ إذا سافر واحد لبلاد الغرب يجدها جميلة جداً أمطار بالآلاف المليترات .

مرة ذهبت إلى مكان هناك تسعة عشرة ألف بحيرة بمنطقة ولاية، أكبر تجمع مائي في العالم غابات عملاقة خيرات لا يعلمها إلا الله كل شيء مبذول بأدنى الأسعار، فسق فجور شذوذ شيء لا

يحتمل، يعبدون الشهوة من دون الله، فإذا الإنسان ما معه كتاب يختل توازنه، تجد المسلمين فقراء بأسهم بينهم في تخلف عندهم أمراض عندهم مشكلات، فإذا إنسان أخذ الأمور على ظاهرها يختل توازنه .

مزايا الشام:

مرة أزمعت أن ألقى درساً في فضائل السكنة في الشام هيأت ثلاثين حديثاً بالصحيح على رأسها :
عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ إِذْ رَأَيْتُ عَمُودَ الْكِتَابِ، احْتُمِلَ مِنْ تَحْتِ رَأْسِي، فَظَنَنْتُ أَنَّهُ مَذْهُوبٌ بِهِ، فَأَتْبَعْتُهُ بِصَرِي، فَعُمِدَ بِهِ إِلَى الشَّامِ، أَلَا وَإِنَّ الْإِيمَانَ حِينَ تَفْعُ الْفِتْنُ بِالشَّامِ))

[أخرجه البزار في مسنده]

بدأت بالدرس شعرت الأحاديث واضحة، لكن لعل أهل هذه البلدة يعانون من مشكلات كبيرة؛ أزمة سكن أزمة كذا أزمة كذا يوجد بطالة وكساد وجفاف، فكأنني وجدت نفسي غير واقعي، الأحاديث في واد، والواقع في واد آخر، أنا انزعجت من هذا الدرس، لكن علي أن أمضيه ثم قدمت مثل قلت لهم: أنا قرأت عن صالة للقمار بلبنان بلغت كلفتها ثلاثين مليون دولار صالة فقط، ثلاثين مليون دولار بصالة ماذا فيها؟ ما نوع الرخام؟ ما نوع الثريات؟ ما نوع الأثاث؟ هذه الصالة ماذا تخرج؟ تخرج منتحرين ومفلسين، نظرت إلى جامعة دمشق بناءها قديم جداً أحياناً في البرد لا يوجد تكييف السبورة تقليدية، لكن هذه الجامعة ماذا تخرج ؟ أطباء مهندسون علماء أحياناً، فالقضية ليست قضية جمال ومرتعة، بل قضية منفعة وخبرة .

إذا كنت مؤمناً حقاً ترضى بقضاء الله وقدره :

أنا أقول للأخوان الكرام: إذا جاءت الأمور على خلاف ما تتمنى إن كنت تعبد الله تحترم قضاءه وقدره وتحترم حكمته وتحترم أمره، أما إذا كنت تعبد نفسك لم يوافقك الشيء
مثل مشهور جداً: النبي قال: لا تقتلوا عمي العباس، مقام النبوة مقام لا أحد يعرف حجم هذا المقام لكن واحد أخذ الكلام على ظاهره، أهدنا يقتل أخاه عمه وأباه، وينهانا عن قتل عمه قضية تعسف، يجب ألا نقتل له عمه، أما نحن إذا وجدنا بالمعركة عمنا المشرك نقتله، فتألم وكأنه أساء الظن برسول الله عمه مسلم في مكة، وعمه عين النبي هناك، وكل قرار تتخذه قريش يصل إلى النبي قيادته كانت ذكية جداً أساساً معلوماتية كما يقولون معه معلومات دقيقة أي قرار يتخذ في قريش تأتية نسخة خلال أيام، معنى ذلك هو مخترق لعدوه، أحياناً المعلومات وحدها كافية، ونقص المعلومات سبب الهزيمة أحياناً، وأحياناً النصر أساسه المعلومات فإذا كان النبي الكريم عمي مسلم

لا تقتلوه كشفه وانتهى، انتهت مهمته، والقضية ببدايتها ما زالت بيدى، وإذا كان عمه ما ساهم بالحرب كشف نفسه، وإذا النبي سكت يقتلونه له ، لا تقتلوا عمي العباس، أحد الذين أساءوا الظن برسول الله قال: بقيت عشر سنوات أتصدق رجاء أن يغفر الله لي سوء ظني برسول الله، لذلك حسن الظن بالله ثمن الجنة .

أنا متهجم أما إذا جاءت الأمور على خلاف ما أريد أنا مؤمن إيمان مطلق بحكمة الله ورحمته وعدله .

فلذلك نحن في أمس الحاجة إلى هذه المعاني كي تبقى معنوياتنا مرتفعة، كي نبقي واثقين بحكمة الله وبنصره، هذا معنى قوله تعالى:

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ)

[سورة الطور الآية: ٤٨]

المؤمن الصادق يحترم مشيئة الله، ويحترم قضائه وقدره .
فيا أخوان، حسن الظن بالله ثمن الجنة، ولو جاءت الأمور على خلاف ما يشتهي المسلمون في العالم، والحمد لله رب العالمين .

دعاء الختام:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم أعطنا ولا تحرمنا، أكرمنا ولا تهنا، آثرنا ولا تؤثر علينا، أرضنا وارض عنا، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه سلم.

والحمد لله رب العالمين